عاشوراء في ليلة و يوم، مع رؤس و رماح

<"xml encoding="UTF-8?>

ليلة عاشوراء خرجت قاصداً المساهمة في مواكب العزاء الحسيني، فالتقيت بالأخ العلامة السيد هاشم الهاشمي نجل العلامة الحجة الشاعر المفلِق السيد محمد جمال الهاشمي رحمه الله إذ مرّ موكب رجال الدين، في هدوء وهيبة، لكنّهم صامتون فتذكرت أيام شبابنا في كربلاء المقدسة، حيث كان موكب علماء الدين يتقدمه السادة الأشراف منهم و يتلوهم المشايخ يردّدون أشجى الأبيات و أعمقها تأثيراً و أبلغها معاني و أفصحها أدباً.
فذكر السيد هاشم الهاشمي أن والده الشاعر الشهير نظم بيتين لذلك الموكب الرهيب الجليل هما:

ليلةَ العاشر لا لاحَ الصَباح	فَحِمَى زينبَ لَو لَاحَ يُباح
هذه أجسامُهم فوق الثرى	ورُؤوسٌ عالياً فوقَ الرِماح

هذا ما كان لي في ليلة عاشوراء.
وخرجت صباح تلك الليلة لأسهمَ كذلك في العزاء في طريقي إلى الحرم الفاطمي المقدّس، فوافقت موكباً أنقل ما حصل لي فيه في هذه السطور:
لعاشوراء ـ فى كلّ عام هجري وفي حياة كلّ شيعي ـ مظهرٌ خاصّ متميّز، يبدو عليه أين ما حلّ في أقطار الأرض، وفي أي عمر كان؟ أو بأية ثقافة تثقف؟ أو بأي عمل، أو وظيفة، أو مسؤولية ومقام ارتبط؟ لأن ذكرى الحسين عليه السلام هو جزء من كيان الشيعة، منذ الولادة، بل قبلها، فلابُدَ أن يسمعَ عنه شيئاً وهو جنين، ثم رضيع، ثم ينمو عليه وينشأ، يسمع عنه القصص، ويرى الجموع و المواكب وهي مزيجة بالألم والحزن والمصيبة، والمجالس وهي تستدرّ الدموع، والمسيرات ومعها الشموع، مناظر لا تغيب عن أنظار الأطفال يشيب عليها الكبار، و تستقرّ في القلوب والأفكار.
مناظر وظواهر يمتزج فيها الواقع بالخيال، وكلّما اتّسعت معارف الناظر؛ يقف على قضية الحسين عليه السلام بصورٍ فريدة في فجيعتها وكلّما تعرّف على جهاتها: زمانها ومكانها وظروفها الأخرى، وكذلك على عناصرها وشخصياتها مظلومين، وحتى ظالمين، وعلى مجرياتها و حوادثها كمّاً وكيفاً؛ أحسّ بعمق الأسى إلى عظمة الأهداف، وقدسيتها، وضخامة النتائج وأهميّتها.
وأنا كشيعيّ، عشتُ في بيئة دينيّة، ترتبط بالحسين عضوياً ـ نسبيّاً ـ أمّا وأبا، وعقيدياً، وعلميّاً، وقطرياً وطنيّاً، حيث ولدتُ في كربلاء، ونشأت في جوار الحسين عليه السلام وفي بيتٍ لا يبعد عن مرقده الشريف سوى أمتار، ومولدى هناك حيث هو مولد أمي وأبيها.
نشأت مرتبطاً بالحسين وقضيّته، وكانت من أولى اهتمامي العلمية هي قضيّته، فأوّلُ كتاب ألفته، وأجريت قلمي فيه، كان هو «حول نهضة الحسين عليه السلام» بحثت فيه عن أسبابها ونتائجها، ولا زلت مساهماً بشكل أو بآخر في إحياء ذكرها على طول الأعوام، وفي عاشوراء كل عام، حيث يتجدّد مع تجدُّدها ـ في أعمالي عمل جديد، من قراءة و تحقيق، أو كتابة وتأليف، أو شعر ونشيد، أو تكميل و تأكيد، أو أيّ جهد مفيد.

أفقتُ على أصوات الطبول والأبواق ومكبّرات الصوت الصاخبة التي يعجّ بها أفق البلد، والناسُ يؤدّون واجب عواطفهم تجاه قضية الإمام الحسين عليه السلام، كلٌّ بأسلوبه، وبإمكاناته، وقدراته.

خرجت كالعادة في كلّ عام، متجّها ابتداءً إلى الحرم الفاطمي الشريف لأحظى بزيارة السيدة فاطمة المعصومة بنت الإمام الكاظم عليه السلام التي أعتزّ بجوارها وأتشرف بذلك منذ الهجرة الأخيرة إلى إيران الثورة، في عام (1400 هـ) ولأعزّيها بالذكرى الحسينية المؤلمة وأتلو في حضرتها زيارة الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، ولأؤدّي الصلاة الكبرى مع ملايين المصلين المقيمين لها ظهر هذا اليوم تأسياً بالإمام الحسين عليه السلام حيث أقامها مع أصحابه في ساحة الشهادة في كربلاء.

وكالعادة، وبعد إتمام ما لزم من الأعمال، التحقّ بالموكب الجماهيري الكبير الذي يَقيمه العرب في قم باسم «عزاء طويريج» وهو تمثيل للعزاء المهيب الذي يقيمه العراقيون في كربلاء في ظهر عاشوراء كلّ عام، يشترك فيه الملايين، مهرولين يمثلون فريق النجدة التي قصدت كربلاء ليعينوا الإمام عليه السلام لكنهم يَصِلون إلى أرض الواقعة بعد وقوعها وانتهائها، وحين يجدون المخيّم الحسيني قد شبّت فيها النيران.

في تمثيل مهيّج للأحزان، تمتزج فيها الدموع بالدخان، والنجدة بالخيبة، والأسف بالحسرة، لكن تستتبع الأمل بالولاء، وتمزج الجهد والجدّ بالعزم، وتجدّد الإخلاص في النفس، والرجاء بتحقق الأماني للحوق بالركب الحسيني الظافر في الدنيا والآخرة.

وبعد المشاركة الرمزية في هذا الموكب الخالص من الأطر الضيقة الجبهوية والموكبية والحزبية وحتى الانتماءات الشخصية والمحليّة ولا يدّعيها مدّعٍ، ولا تتمّ باسم أحد وعنوانه، ففيها من الخلوص والإخلاص شيء مشهود.

فقفلتُ ذلك اليوم راجعاً من الحرم الشريف والعزاء، مليئاً بالعَبرة والعبرة، وبالرُوح والرَوح، حامداً لله على هذا التوفيق، الذي أؤمل أن يكون ثابتاً في ديوان صالحاتي، خالصاً لا يشوبه عجبٌ ولا رياءٌ ولا سمعة، ولا تصحبه معصية ولا تهمة، ولا سوء نيّة، وكنت ـ وأنا أحس بتعب وإرهاق ـ منبهراً بمظاهر العزاء العامة، والمواكب التي تترى متوالية، لأصناف الناس، بمختلف اللغات، تصحبهم أدواتهم من أعلام وأدوات عزاء وولاء، فإذا بي أجد نفسي وسط موكبٍ ضخمٍ، لجماعة من الهنود، ومن أهل كشمير، يحملون لافتة مرقوم عليها بلغتهم ما لا أعرفه، ومعهم علمٌ واحدٌ فقط، مما يدلّ على بساطة أدواتهم، وسمعتهم يهمسون بصوت خافت، ويتلون ما لا أفهمه، لأنه باللغة الهندية.

وبينا أنا بين التأمّل والدهشة، فإذا بالنداء يأتي من المذياع البعيد في نهاية الموكب، يردّد نفس العبارة التي يتلوها الأفراد، فحفظت من الكلمات: «بازارجي مي... بهائي».

لم أفهم ـ كما قلت معنى الكلمات ـ إلا أن الموقف، والهمسات، واللحن، حركت في نفسي إحساساً غريباً، وحزناً عميقاً، فدمعت عيني بلا اختيار منّي، وصرتُ أتلفتُ ـ يمنةً ويسرةً ـ أبحث عمّن يفسّر لي تلك الكلمات، وإذا بشاب إلى جنبي كأنه ينظر إليَّ، وكأنّه ينتظرني أن أحدثه، فتوجهت إليه، وسلّمتُ وعزيته، وقلت: أخي، هل يمكنك أن تفسّر لي هذا الذي يتلونه؟ فقال: نعم، إنّهم يعبّرون عن لسان العقيلة السيّدة زينب، أخت الحسين عليه السلام فهي تخاطب رأس أخيها الحسين، محمولاً على رأس الرمح وقد بدأ يقرأ القرآن الكريم، فتقول له:

في السوق اقرأ القرآن عالياً، يا أخي *** كي يعرفوا أننا مسلمون نعرف القرآن

فاقشعرّ جلدي، من سماع هذا الكلام! أن تطلب السيّدة زينب ابنة علي بن أبي طالب، وابنة فاطمة الزهراء، وحفيدة صاحب الرسالة محمد رسول الله صلى الله عليهم اجمعين.

تطلب زينب من أخيها: أن يقرأ من رأسه المذبوح، المرفوع على الرمح بيد أعدائه، أن يقرأ القرآن بصوت عالٍ

مرتفع، كي يعرف الناس ـ المدّعون للإسلام ـ أن الأسرى ـ زينب وأخواتها وأولاد الحسين وأبناء أهل البيت النبويّ ـ أنهم مسلمون! يعرفون القرآن ويتلونه، وهم من أهل القرآن.

أوّاه، ما أوجع ذلك على قلب كلّ مسلمٍ، أن يصبح أهل بيت الرسول و قرناء القرآن في حديث الثقلين، ومن نزل القرآن في منازلهم، يصبحوا متّهمين، بين من يدّعي الانتماء إلى الإسلام. انّها الظليمة حقّ الظليمة!

ومن هنا ينكشف سرّ وجود تلك المعجزة العظيمة معجزة تكلّم رأس الحسين المذبوح من فوق الرأس المرفوع.

وقد أوقع في رُوعي نظم ذلك المعنى، فقلت:

إقرأ القرآن في السـوق أخـي	عالياً كـي يـعـرفـونا مُسلمـين
إقرأ القرآن حـتـى يـعـلموا	لا يقولوا خارجيّ يا حسـين
مـعـلناً من شاهق الرمح وقل	إننا أصـحاب إيمان ودين
اتـلـه كـي يـعـرفـونا أنـنا	نحن والقرآن عـين الثـقلين
أبـداً صـنـوان لـن يـفـترقا	جدّنا نـصّ بنا كالفرقدين
ضلّ أهل البغي أبدوا كفرهم	أعـلـنـوا أحـقاد بـدرٍ وحُنين
رفعوا القرآن في صفّين والـيوم	شالوا فوقه رأس الحسين
ربّـنا ذو العرش أعلى شأننا	فـتـعالى رأسـُنا فى العالمين
قـطـع الله يـداً قـد قـتـلـت	سيـّد الأبرار وابن الأكـرمين1

---

1. نقلا عن الموقع الرسمي لسماحة العلامة المحقق السيد محمد رضا الحسيني الجلالي حفظه الله.